MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 19-6-95
Photo No. : 179

فيلم فرنسي طويل

بقلم سمير قصير

لم يُفرش له السجاد الاحمر ولا وجد صديقاً ينظم له "حماماً جماهيرياً" ولا احتشدت امامه فاعليات الجمهورية الثانية وبعض بقايا الاولى. وهو اصلاً لم يسع الى اكثر من جلسات حوار مع عدد من المثقفين والفنانين. لكن خلوه المتواضع في لبنان قد يكون اكثر انباء عن "عودة بيروت" والاحتمالات التي تنفتح عليها من زيارات جاك شيراك، رئيس جمهوريته، مهما تكن تلك الزيارات معبرة في ذاتها. انه دانيال توسكان دو بلانتييه، احد الفرنسيين الاكثر تجسيداً لخصوصية بلدهم ورغم ذلك الاكثر نفوذاً في العالم. اي انه يختصر في شخصه جدوى "الاستثناء الثقافي" عموماً و"الاستثناء الفرنسي" خصوصاً.

قبل اعوام قليلة، شكلت مسألة "الاستثناء الثقافي" حجر العثرة الذي

عطّل لاشهر مفاوضات "الغات" (الاتفاق العام حول التجارة والتعرفات الجمركية) التي انتهت بعد مخاض عسير الى تأسيس منظمة التجارة العالمية. والمقصود بهذا الاستثناء هو عدم اخضاع السلع الثقافية وخصوصاً الافلام الى قاعدة الحرية التجارية المطلقة التي ارادتها الولايات المتحدة، الممثلة بالمفاوض الشرس ميكي كانتور، قانوناً سامياً للنظام العالمي الجديد. في وجه كانتور، المدعوم بقوة من جاك فالنتي، المسؤول عن اتحاد شركات الانتاج السينمائي الاميركية الكبرى، كان توسكان دو بلانتييه واحداً من ابرز حَمَلة الراية الثقافية، بتأييد من معظم القوى السياسية الفرنسية.

وقد تركزت المعركة حول الحماية المؤمنة في فرنسا وبعض دول اوروبا للصناعة السينمائية الوطنية عبر نظام الحصص المعمول به في شبكات التلفزيون والدعم المادي المقدم للسينمائيين، ولاسيما المبتدئين منهم. وصار "الاستثناء الثقافي" عنواناً لتمرد فرنسي اثمر بعد طول اخذ ورد اتفاقاً يراعي الى حد كبير خصوصية السلع الثقافية، وتالياً الهويات الوطنية. وفي هذا المعنى، ادت المعركة التي كان توسكان دو بلانتييه احد جنرالاتها الى التخفيف من مفاعيل العولمة في المجال الاكثر دقة.

ويزيد من اهمية هذا الانجاز، وان لم يكن كاملاً، ان اقتصاد السينما في فرنسا لا يعني فقط السينما الفرنسية بل ايضاً السينمائيات الناشئة في دول العالم الثالث والسينمائيات المفلسة (مادياً لا ابداعياً) في الدول الاوروبية الاخرى. اي ان السينما في فرنسا اصبحت وسيلة الى العالمية... ضد العولمة. وهنا ايضاً ادى توسكان دو بلانتييه دوراً رياديا منذ بدأ يزاول الانتاج السينمائي في اواسط السبعينات. فبالاضافة الى خوضه في مغامرات لم يكن نجاحها محسوماً سلفاً كافلام الاوبرا، ساعد العديد من المخرجين غير الفرنسيين الذين لم تتسع لهم هوليوود الى مواصلة ابداعهم (منهم جوزف لوزي وانفمار برغمان وفديريكو فلليني وفرنشيسكو روزي ورايتر ماريا فاسبندر...)، كما كان من الذين سعوا الى تمويل اعمال من العالم الثالث، سواء كمنتج (الهندي ساتياجت راي، المالي سليمان سيسيه...) او كأحد المسؤولين عن نظام دعم السينما العالمية الذي ارسى دعائمه جاك لانغ، وزير الثقافة في اول العهد الاشتراكي في الثمانينات.

وزيارة توسكان دو بلانتييه الى بيروت تأتي اساساً في هذا الاطار، اذ جاء يتفقد من جهة تصوير فيلم رندة الشهال الجديد، وهو منتجه، ويبحث من جهة اخرى في امكان دعم الصناعة اللبنانية الوليدة والمخرجين الشباب، بصفته رئيساً لـ"اونيفرانس"، الشركة التي ترعى تصدير الافلام الفرنسية (او ذات التمويل الفرنسي). طبعاً، ليس الدافع الى مثل هذا الدعم ان الفرنسيين يحبون البشرية، انما هو الاقتناع الراسخ بان نمو السينمائيات العالمية غير الهوليوودية، ايا تكن، ينعكس خيراً على السينما الفرنسية، باعتبارها "اولى تلك السينمائيات" كما يقول توسكان دو بلانتييه. اكثر من ذلك: ان استمرار السينما صناعة حية في فرنسا شرطه تطورها في الدول الاخرى، اكانت اوروبية ام افريقية ام عربية الخ...

ان مثل هذا التعاون، اذا نجح في تخطي مرحلة الفكرة النيّرة ليصبح مشروعاً قائماً، قد يفتح بالتأكيد افقاً رحباً للثقافة في لبنان. غير ان ذلك يتطلب امرين يصعب تحقيقهما في الوضع الراهن. الاول هو ان تنوجد آليات مؤسسية لبنانية لتأطير التعاون، والآخر والاهم ان يخلد للنوم اولئك الذين يصرخون ضد "غزو ثقافي" غير موجود عندما يعرض عليهم تواصل مع العالمية "يخردق" العولمة ويستفيد منها في آن واحد. اما اذا تأمن هذان الشرطان، فتكون "عودة بيروت" ، بيروت البشر وليس فقط الحجر، جديرة بالاهتمام الذي تلقاه في الخارج، رغم لامبالاة بعض اهلها وكل ساستها.

سمير قصير